

## استكشاف الصحراء الإفريقية والجزائرية قبل القرن 19م

د. موساوي طاهر

مقدمة\*:

إن الصحراء الإفريقية الكبرى عموما والصحراء الجزائرية كأهم جزء منها لم تكن معروفة من قبل، ولم تكشف أسرارها وبقيت مجهولة طوال قرون عديدة، وقد كان السفر عبرها بقصد استكشاف الفيافي الشاسعة التي تمتد بين المحيط الأطلسي ونهر النيل وبين نهر تشاد والبحر الأبيض المتوسط، والتي تشغل أكثر من ثلث مساحة القارة الإفريقية، أمرا ليس بالهين ولا باليسير، فهي مناطق قاحلة تسطع فيها شمس محرقة في معظم فصول السنة، يزيد من غموضها وخوف الأجانب من أهوالها تلك الأساطير التي تزرى عن متاهاتها وعن سرايها الخداع، وقد زاد من قوة هذه المناعة ما عرف به السكان الذين يقيمون في أطرافها من شوكة في الدفاع عن أراضيهم وعاداتهم ومعتقداتهم، لذلك توالت المحاولات من أجل استكشافها منذ القدم، تعود أولى محاولات التعرف على أطراف الصحراء الشمالية إلى زمن الإغريق ثم القرطاجيين والرومان إلى أن تمكن العرب المسلمون من ولوجها وتتبع مسالكها ووصفها، الأمر الذي ضاعف من رغبة الأوروبيين في استكشافها خلال القرن الثامن عشر، هذه الرغبة تحولت إلى حقيقة وواقع خلال القرن 19م، حيث استطاع الأوروبيون اختراق الصحراء الإفريقية بما فيها الصحراء الجزائرية في كل الاتجاهات وتمكنوا من بسط نفوذهم عليها. غير أن

---

\* - Résumé

L'exploration du Sahara africain et algérien est une étude brève et courte sur les étapes de cette découverte tout au long de l'Histoire jusqu'au 19<sup>e</sup> siècle, siècle ou les grandes puissances coloniales européennes ont entrepris leurs incursions et colonisation en Afrique afin de mieux connaître le Sahara et contrôler son commerce.

C'est pourquoi cette étude s'est intéressée aux tentatives des Grecs et Carthaginois d'envahir le Sahara africain y compris le désert algérien pour bénéficier du commerce. L'étude a évoqué aussi les tentatives des Romains de prospecter le Sahara lorsqu'ils avaient dominé le nord-africain.

L'étude a également touché en détail les expédition effectuées par des voyageurs et géographes arabes, entre le 10<sup>e</sup> et 18<sup>e</sup> siècle et qui avaient traversé les déserts africain et algérien et décrit leurs sentiers, villes et tribus ainsi que leurs commerces. Enfin, cette étude a parlé de l'intérêt européen pour le Sahara africain à la fin du 18<sup>e</sup> siècle et de leurs envie d'étudier les œuvres des voyageurs arabes, et leurs engagement et volonté de traverser les sentiers qui ils ont empruntés.

L'étude propose d'étudier les motifs de cet intérêt surtout chez les Britanniques et les Allemands.

الإشكال المطروح هو: ما هي مراحل استكشاف الصحراء الإفريقية عبر التاريخ؟ وبما نفسر رغبة الأوروبيين في استكشافها خلال القرن 18؟

## 1 - مراحل استكشاف الصحراء الإفريقية عبر التاريخ:

### 1.1 - استكشاف الإغريق والقرطاجيون للصحراء الإفريقية الكبرى:

لم يقدم الرحالة القدماء من الإغريق والقرطاجيين والرومان إلا معلومات ضئيلة ومحدودة، حيث قدم عنها "هيرودوت" Herodotus<sup>1</sup> معلومات أولية بعد أن قام برحلة إلى برقة ودواخل ليبيا في القرن الخامس قبل الميلاد، وذكر أنها كانت أقل جفافا قبل نصف مليون سنة،<sup>2</sup> أما بالنسبة للقرطاجيين فقد مثلت لهم محطتي طرابلس وسبراته المركزين التجاريين الذين كانت تلتقي عندهما الطرق التجارية التي تشق الصحراء وتربط البحر المتوسط ببلاد السودان وأعالي نهر النيجر<sup>3</sup>، ولم تبلغ الصحراء في عهد القرطاجيين درجة الجفاف التي وصلت إليها اليوم، لذلك كان من الممكن قطع الصحراء بدون صعوبة كبيرة على شرط اجتناب التلال والكثبان الرملية، وأن أسهل طريق نسبيا هو الذي كان يمر من معبر واحات فزان ويربط بين البحر المتوسط والسودان<sup>4</sup>، ورد بأن أحد القرطاجيين واسمه "ماغون" Magon<sup>5</sup>، كان قد قطع الطريق الصحراوي ثلاث مرات دون أن يتزود بالماء، مما يدل على أن جفاف الصحراء كان مغايرا لما هو عليه الآن، لوجود ينابيع مياه عبر ذلك الطريق الصحراوي.

يظهر أن التجار القرطاجيين لم يسافروا في أول الأمر بأنفسهم إلى بلاد السودان لجلب ما فيها من خيرات، بل قضوا مدة طويلة وهم يستخدمون وسائط، فقد كانت القوافل تأتي تحت حراسة "الغرامنت" Garamantes<sup>6</sup> إلى أن تبلغ طرابلس، وكانت قوافل "الفروزيين"

<sup>1</sup> - هيرودوت: (484 - 425 ق.م)، مؤرخ ورحالة يوناني، له "تاريخ" هو من أهم المصادر لمعرفة أخبار الأمم القديمة وأساطيرها. (المنجد في اللغة والأعلام)، ط 16، دار المشرق بيروت، لبنان، 1991، ص 606.

<sup>2</sup> - يحي بوعزيز: (اهتمامات الفرنسيين بجنوب الجزائر والصحراء من خلال ما كتبه ومدى استفادتهم من طرق القوافل في غزوها)، مجلة الأصالة، لملتقى الإسلامي الثالث عشر، تمراست، الجزائر، 1979، ص 45.

<sup>3</sup> - محمد الصغير غانم: (التوسع الفينيقي في غربي البحر الأبيض المتوسط)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1992، ص 94.

<sup>4</sup> - أحمد صفر: (مدنية المغرب العربي في التاريخ ج 1)، دار النشر بوسلامة، تونس، 1959، ص 123.

<sup>5</sup> - محمد الصغير غانم: المرجع السابق، ص 95.

<sup>6</sup> - الغرامنت: قبائل ليبية عاصمتهم غرامة Garama، استوطنوا صحراء ليبيا، جنسهم قريب من التوارق، استعملوا العربات التي تجرها أربعة خيول قبل ألف سنة قبل الميلاد، فقتلوا بها الحمادات الصحراوية في حربيهم للحبش بجبال التبستي. نفس المرجع ص 124.

Pharusiens<sup>1</sup> تصعد من مسلك آخر إلى مدينة قرطبة، هكذا كان التجار القرطاجيون يتزودون بالبضائع الواردة من الأراضي البعيدة الحارة كالعاج والتبر وجلود الحيوانات المفترسة. كانت سبراطية من أهم الأسواق التابعة للقوافل الصحراوية القادمة من السودان، ففي القرن الخامس كان التجار يأتون إليها من قرطاج وينزلون بها في انتظار قدوم قوافل الصحراء، ولكن بعد ذلك عزم القرطاجيون على التوغل بأنفسهم في تلك المسالك الصعبة، ومما لا شك فيه أن بعثات القرطاجيين ورحلاتهم الصحراوية الكبرى بدأت تظهر في القرن الخامس، إذ في ذلك التاريخ صار البونيقيون يريدون الاستغناء عن الوسائط والاتحاق مباشرة بمصدر الخيرات التي تتركز عليها تجارتهم، فصارت قوافلهم تخطط الصحراء الكبرى وتقتصد بلاد السودان لجلب الرقيق والتبر والعاج وغير ذلك من ثمين المواد<sup>2</sup>.

لا يمكن نكران أهمية التجارة الصحراوية بالنسبة لقرطاج، فمنذها الطبيعي على البحر الأبيض المتوسط كان بلاد طرابلس أو ليبيا بأسواقها المشهورة مثل: لبدة وسبراطية وطرابلس، لذلك يمكن القول بأن الصحراء كانت من أهم أركان ثروة قرطاج خصوصا وأن القرطاجيين كانوا لا يجدون أمامهم مزاحمين ينافسونهم في هذا الميدان الذي امتازوا به دون غيرهم حتى لقبتم قرطاج بملكة إفريقية<sup>3</sup>، وقد راجت في قرطاج بضائع الصحراء التي كانت القوافل تحملها من النيجر إلى طرابلس عبر مرزوق، وبلاد الغرامنت مثل الذهب، الجلود، ريش النعام، والعبيد، التي تباع بالأقمشة والحلي.

## 2.1 - تعرف الرومان على الصحراء الإفريقية والجزائرية:

خلال الاحتلال الروماني للشمال الإفريقي اقترب الرومان من أطراف الصحراء الشمالية وأقاموا قلاعا وقواعد عسكرية وسكنية في بنغازي، طرابلس، غدامس، إفريقية القنصلية، تبسة، الأوراس، نوميديا الشرقية وموريطانيا القيصرية<sup>4</sup>، وقد شعر الأباطرة الرومان بالحاجة إلى توسيع منطقة النفوذ نحو الجنوب، بقدر ما كان ينمو عدد السكان وتزدهر حالة الزراعة. هذه الحركة التوسعية بدأت تظهر في أوائل القرن الثاني ثم تجلت بوضوح في آخر ذلك القرن وفي بداية القرن الثالث، ففي سنة 238 م كان الليمس - أي الحد الروماني المادي - يصل إلى الجنوب، وقد تم إنشاء مراكز في الواحات مثل بونجم، غدامس، شط الجريد، واحتى نفطة وتوزر بين شط الجريد وشط الغارسة، ثم يتجه هذا الحد من الجنوب الشرقي إلى الشمال الغربي أين أقيمت مراكز حراسة بالواحات الكائنة على تخوم الصحراء كواحة تقرين،

<sup>1</sup> - **التروزيون**: قبائل ليبية فيما وراء العرق الكبير الغربي، مدينتهم شبيهة بمدينة الغرامنت، كانت تراقب المسلك الصحراوي الذي يبدأ من موريطانيا ويصل إلى السنغال. نفس المرجع ص 124 - 125.

<sup>2</sup> - محمد الصغير غانم: نفس المرجع، ص 95.

<sup>3</sup> - أحمد صفر: المرجع السابق، ص 126.

<sup>4</sup> - يحي بوعزيز: (اهتمام الفرنسيين بجنوب الجزائر والصحراء)، مجلة الثقافة، العدد 57 مايو / يونيو، الجزائر، 1980، ص 16.

بادس، جمالة، دوسن، ومن دوسن نحو بوسعادة وبوغار، ومن أهم هذه المراكز مركز مسعد بجبال أولاد نايل الذي تأسس سنة 201م، وكان التجار الرومانيون يذهبون حتى إلى فزان<sup>1</sup> في مطلع القرن الأول المسيحي تمكن "كورنيليوس بالبوس" Cornélius Balbus من عبور الصحراء عام 19م من ليبيا إلى جبال تاسيلي بالهقار، في محاولة للوصول إلى مجرى نهر النيجر، واقتفى أثره آخرون بعد ذلك إلى السودان والآير ومن بينهم "سبتوميوس فلاكوس" Septimus Flaccous و"جوليوس ماتيرنوس"<sup>2</sup> Julius Matternus.

### 3.1 - وصف الرحالة العرب للصحراء الإفريقية والجزائرية:

شهدت الصحراء الإفريقية الكبرى في العصر الوسيط مدا إسلاميا واسعا عن طريق البلدان العربية في الشمال الإفريقي وعن طريق صعيد مصر والساحل الإرتيري وبلاد الحبشة والصومال في الشرق، ولعب المرابطون والموحدون دورا مهما وبارزا في نشر الإسلام في أعماق الصحراء خلال القرن العاشر الميلادي وما بعده إلى القرن الثاني عشر. قامت بالصحراء الكبرى مراكز عمرانية وحضارية مهمة من أبرزها مدينة تمبوكتو، قاو وجني، كما قامت مجموعة من الممالك والإمبراطوريات فيما بين القرن 14م والقرن 19م، اختلفت أعمارها وقوتها في غرب إفريقيا وشرقها، ولقد لعبت التجارة دورا بارزا في ربط الصلات والعلاقات وتوحيد طابعها بين هذه الممالك والإمارات الصحراوية طوال العصرين الوسيط والحديث، حتى قضى عليها الأوروبيون جميعا خلال القرن التاسع عشرة واحدة تلو الأخرى. إن أول من تعرف على أسرار المناطق الصحراوية هم الرحالة العرب الذين جابوا الصحراء الكبرى طولاً وعرضاً خلال العصر الوسيط وتعرفوا على أوضاع تلك الممالك والدول وظروفها السياسية والحضارية وذكروا ذلك في كتبهم، أمثال "ابن حوقل" في القرن العاشر ميلادي و"البكري" في القرن الحادي عشر و"الإدريسي" في القرن الثالث عشر و"ابن بطوطة" في أواخر القرن 13م ومطلع القرن 14م و"ابن خلدون" في القرن 14م و"الحسن الوزان" في القرن 15م ومطلع القرن 16م و"العياشي" خلال القرن 17م و"الورثاني"<sup>3</sup>. تحدث الرحالة والجغرافيون العرب عن الصحراء الكبرى وتركوا لنا وصفا لمختلف أطرافها، لاسيما المناطق الواقعة على حافتيها الجنوبية والشمالية، التي كانت تجوبها قوافل التجار، والتي زرع دعاة الدين الإسلامي فيها بذور حضارة نمت وترعرعت في مراكز عمرانية مثل أودغست وسجلماسة وتمبوكتو.

<sup>1</sup> - أحمد صفر: المرجع السابق، ص 307 - 308.

<sup>2</sup> - يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص 16.

<sup>3</sup> - يحي بوعزيز: (تاريخ إفريقيا الغربية الإسلامية من مطلع القرن السادس عشر إلى مطلع القرن العشرين)، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2001، ص 42 - أيضا إبراهيم مياشي. (توسع الاستعمار الفرنسي في الجزائر الغربي الجزائري 1882 - 1912)، منشورات المتحف الوطني، الجزائر، 1996، ص 37.

كانت هذه المدن مقصدا للقوافل من مختلف أطراف المشرق والمغرب تنقل إليها منتجات الشمال ومنتجات الأندلس التي تعبر المغرب وتحمل منها العبيد، التبر والعاج وغير ذلك، وعلى سبيل الذكر لا الحصر نذكر هنا وصف "ابن حوقل"<sup>1</sup> لسجلماسة بصحراء المغرب الأقصى، وهو الذي زار المغرب وتجول فيه من المشرق إلى المغرب ومن الشمال إلى أقصى الجنوب، إذ يقول:

« سجلماسة مدينة حسنة الموضع جلييلة الأهل فاخرة العمل على نهر يزيد في الصيف ... فيزرع بمائه حسب زرع مصر في الفلاحة ... ولها نخيل وبساتين حسنة وأجنة، ... وأهلها قوم سراة مياسير يباينون أهل المغرب في المنظر والمخبر، مع علم وستر وصيانة وجمال واستعمال للمروءة وسماحة ورجاحة. وأبنيتها كأبنية المكوفة إلى أبواب رفيعة على قصورها مشيدة عالية<sup>2</sup>. »

وقال "الإدريسي"<sup>3</sup> في بلاد السودان: «... وليس في بلاد السودان شيء من الفواكه الرطبة، إلا ما يجلب إليها من التمر من بلاد سجلماسة أو من بلاد الزاب، يجلبه إليهم أهل ورقلان الصحراء. والنيل يجري في هذه الأرض من المشرق إلى المغرب، وينبت على ضفتيه القصب... في النيل أنواع من السمك وضروب من الحيتان الكبار والصغار ومنه طعام أكثر أهل السودان، يتصيدونه ويملحونه ويدخرونه... وأسلحة هذه البلاد القسي والنشاب، ... وحليهم من النحاس والخرز والنظم من الزجاج، ... وأهل المدن منها يزرعون البصل والقرع والبطيخ يعظم عندهم كثيرا، ولا حنطة عندهم ولا حبوب أكثر من الذرة، ومنها ينتبذون ويشربون، وجل لحومهم الحوت، ولحوم الإبل المقددة، كما قمنا بوصفه<sup>4</sup>.»

أما "ابن بطوطة"<sup>5</sup> فقد تحدث عن الصحراء حينما توغل داخلها في رحلته الثالثة "تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار" حيث سجل ملاحظاته عن بلاد السودان والتي مر بها عند عودته من رحلته المشهورة "برحلة ابن بطوطة" تحت عنوان "ذكر ما استحسنته من أفعال السودان وما استقبحتته: « فمن أفعالهم الحسنة قلة الظلم، فمنهم أبعاد الناس عنه، وسلطانهم لا يسامح أحدا في شيء منه. ومنها شمول الأمن في بلادهم، فلا

<sup>1</sup> - ابن حوقل: رحالة وجغرافي من أهل بغداد. توفي سنة 971 هـ. جاب العالم الإسلامي، اشتهر بكتابه (المسالك والممالك). (المنجد في اللغة والأعلام). المرجع السابق، ص 07.

<sup>2</sup> - إسماعيل العربي: (المدن المغربية)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984. ص ص 125 - 126.

<sup>3</sup> - الإدريسي: هو أبو عبيد الله الشريف ولد سنة 1100 وتوفي سنة 1165. رحالة مغربي، من مؤلفاته: (زهة المشتاق في اختراق الآفاق). (المنجد في اللغة والأعلام)، المرجع السابق، ص 31.

<sup>4</sup> - الإدريسي: (القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس) مقتبس من كتاب. (زهة المشتاق)، تحقيق وتقديم وتعليق إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1983. ص ص 34 - 35.

<sup>5</sup> - ابن بطوطة: وهو محمد بن عبد الله (1304.1377)، ولد في طنجة. رحالة مغربي طاف في أنحاء العالم واستغرقت رحلاته زهاء 29 سنة. له (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار)، المعروفة برحلة ابن بطوطة. (المنجد في اللغة والأعلام)، المرجع السابق، ص 05.

يخاف المسافر فيها ولا المقيم من سارق ولا غاصب. ومنها عدم تعرضهم لمال من يموت ببلادهم من البيضان، ولو كان القناطير المقنطرة، إنما يتركونه بيد ثقة من البيضان حتى يأخذه مستحقه، ومنها مواظبتهم للصلوات والتزامهم لها في الجماعات، وضرب أولادهم عليها، ... ومن مساوئ أفعالهم كون الخدم والجواري والبنات الصغار يظهرون للناس عرايا... ومنها جعلهم التراب والرماد على رؤوسهم تأديبا<sup>1</sup>».

كما قام الرحالة "الحسن الوزان"<sup>2</sup> المعروف في الغرب بـ "ليون الإفريقي" برحلة إلى الصحراء في مطلع القرن السادس عشر قدم من خلالها عدة معلومات هامة عن هذه البقاع، وقسمها إلى خمس مناطق متميزة وهي: « صحراء زناتة التي تمتد من المحيط إلى سبخات تغازي. وصحراء ونزيفة التي تمتد من تغازي التي كانت تمد كثيرا بلاد السودان بالملح، حتى آير في الشرق. وصحراء تافيلالت في الشمال. صحراء التوارق التي يحدها عرق الغيدي من الغرب، وقورارة ووادي مزاب من الشمال، وأغاديس من الجنوب. صحراء لمطة التي تحدها ورقلة. وصحراء غدامس من الشمال. والصحاري التي تمتد حتى كانو من الجنوب. صحراء البرداوة التي تقع بين صحراء لمطة في الغرب وصحراء أوجلة في الشرق، وفزان في الشمال، وبرنو في الجنوب<sup>3</sup>».

بينما تحدث "ابن خلدون"<sup>4</sup> عن بعض مناطق الصحراء الإفريقية في معرض حديثه عن الأقاليم الجغرافية في كتابه (المقدمة) مستلهما ذلك من كتب الرحالة والجغرافيين، حيث قسم الأرض إلى سبعة أقاليم، فذكر في الإقليم الأول منها:

« وأما الجزء الأول من هذا الإقليم ففيه مصب النيل الآتي من مبدئه عند جبل القمر كما ذكرناه، ويسمى نيل السودان، ويذهب إلى البحر المحيط فيصب فيه عند جزيرة أوليك. وعلى هذا النيل سلا وتكرور وغانة، وكلها لهذا العهد في مملكة مالي من أمم السودان. وإلى بلادهم تسافر تجار المغرب الأقصى، وبالقرب منها من شمالها بلاد لمتونة وسائر طوائف الملمثيين، ومفاوز يجولون فيها... وفواكه بلاد السودان كلها من قصور صحراء المغرب مثل توات وتكدرارين ووركلان ... وفي الجزء الأول والثاني منه في الجانب الأعلى منهما أرض (قمنورية)، وبعدها في جهة الشرق أعالي أرض غانة، ثم مجالات (زغاي) من السودان. وفي

<sup>1</sup> - ابن بطوطة: (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار)، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1980، ص 690.

<sup>2</sup> - الحسن بن محمد الوزان الزياتي: أو ليون الإفريقي. المتوفى حوالي 1550م، مؤرخ ورحالة، ولد في غرناطة ونشأ في فاس. خدم الوطاسيين وقام بمهمات دبلوماسية، أسره القراصنة وقادوه إلى نابولي بإيطاليا. له (المعجم العربي العبراني) و(وصف إفريقيا).

<sup>3</sup> - إسماعيل العربي: (الصحراء الكبرى وشواطئها)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983، ص ص 18، 19.

<sup>4</sup> - ابن خلدون: هو عبد الرحمان بن خلدون. ولد بتونس سنة 1332م، وتوفي بالقاهرة سنة 1406م. عالم ومؤرخ وفيلسوف اجتماعي. اشتهر بكتاب (المقدمة) لكتابه (العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر). (المنجد في اللغة والأعلام)، المرجع السابق ص 07.

الجانب الأسفل منهما صحراء (نيسر) متصلة من الغرب إلى الشرق ذات مفاوز تسلك فيها التجار ما بين بلاد المغرب وبلاد السودان، وفيها مجالات الملتمين من صنهاجة، وهم شعوب كثيرة ما بين كزولة ولمتونة (ومسوفة) ولمطة (ونزيكة)<sup>1</sup> .

ويعد "العياشي"<sup>2</sup> من أدري الناس بصحراء المغرب الأوسط لأنه اخترقها مرارا لكونه حج ثلاث مرات، ففي رحلته إلى المشرق خلال القرن السابع عشر وصف الصحراء على أنها أرض متنوعة، منها السهل المسترسل ومنها الحماد والجبال ومنها الرمال الكثيفة التي يحار فيها النظر، أرض لا يهتدي فيها إلا من مارسها. وقد سلك العياشي في رحلته ذهابا وإيابا الطرق الصحراوية بالمغرب الأوسط انطلاقا من سجلماسة، وسجل ملاحظاته حول هذه المضارب في كتابه المسمى "رحلة العياشي" أو "مائدة الموائد" ومنه هذه المقتطفات:

« ثم ارتحلنا من هناك وبلغنا وادي جبر وهو وادي كبير فسيح ملتف الأشجار كثير المرعى غامض المسعى، يجتمع إليه سيول من المساحات البعيدة، ولا تصل إلا بعد أيام عديدة، وابتدأه من ناحية بلادنا وعليه قرى ومزارع ويمتد كذلك إلى ناحية الصحراء والحمادة متصلة في جوانبه إلى أن يصل إلى أطراف الحماد الكبير الذي بينه وبين سجلماسة ومن هناك تنقطع العمرة إلى أن يصل إلى أول قرى وادي الأساور فتتصل قواه كذلك نحو من عشرة أيام إلى قرية من توات فينعطف يمينا في رمال كثيرة وهو من أطول أودية المغرب مسافة وأقلها فائدة وأكثرها مخافة ألا أنه في وقت مرورنا فيه في غاية العافية...<sup>3</sup> .

أما عن "الورثاني"<sup>4</sup> فإنه هو الآخر حج ثلاث مرات، وكان قد سافر برا، حيث قصد سيدي خالد، أولاد جلال، بسكرة ومنها إلى سيدي عقبة، زريبة الوادي، زريبة حامد ثم توزر وقابس.... وقد وصف هذه الأماكن بالتفصيل.<sup>5</sup>

## 2 - الاهتمام الأوروبي بالصحراء الإفريقية قبل القرن 19م:

### 2.1 - دوافع الاهتمام الأوروبي بالصحراء الإفريقية:

ظلت الصحراء الإفريقية الكبرى بالنسبة للأوروبيين عالما مجهولا قرونا طويلا، ولم تكن لهم إلا معلومات محدودة عنها، وقد بدأ اهتمامهم بالصحراء عندما شرعوا في الاكتشافات

<sup>1</sup> ابن خلدون: (كتاب المقدمة) مج 1، الطبعة الأولى، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص ص 92 - 95.

<sup>2</sup> العياشي: هو أبو سليم عبد الله بن محمد بن أبي بكر، ولد بقرية آيت عياش قرب تافيلالت في 1628م، وتوفي بالمغرب الأقصى سنة 1679م. كان عالما محدثا وصوفيا وشاعرا، إلا أنه اشتهر برحلته (مائدة الموائد). أنظر: مولاي بلحميسي: "الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني"، الطبعة 2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص ص 17 - 18.

<sup>3</sup> العياشي: (رحلة العياشي)، مولاي بلحميسي. نفس المرجع، ص ص 66 - 67.

<sup>4</sup> الورثاني: هو الحسين بن محمد السعيد. ولد في ورتلان ومن ثمة نسبته الورثاني، سنة 1125هـ وتوفي بنفس المكان سنة 1193هـ. أكبر عمل ألفه في التاريخ والأخبار هو الرحلة التي سماها (زهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار)، عن أبي القاسم سعد الله: (تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى الرابع عشر هجري) ج 2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م، ص 407. أيضا كتابه: (أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر)، القسم الأول، الطبعة الثانية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م، ص ص 187 - 189.

<sup>5</sup> أبو القاسم سعد الله: (تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى الرابع عشر هجري)، المرجع السابق، ص 409.

الجغرافية البحرية خلال القرن الخامس عشر وما بعده. وقد كانت المعلومات التي سجلها الجغرافيون اليونان والرومان وكذا الجغرافيون والرحالة والتجار العرب هي المعلومات الوحيدة المتوفرة للباحثين عن الصحراء الكبرى في أواخر القرن الثامن عشر، وظلت طبيعة الصحراء سرا مجهولا يتحدى علماء الجغرافيا<sup>1</sup>.

في أواخر القرن 18م ومطلع القرن 19م اشتد التنافس الاستعماري بين الفرنسيين والانجليز والألمان حول القارة الإفريقية، وشرع المغامرون الانجليز والألمان يفدون على إفريقية مع نهاية القرن 18م. وكان من أسباب هذا التنافس:

أولا: فتح مجالات للصناعة والتجارة الأوروبية.

ثانيا: إيجاد حل لفائض السكان على الآماد البعيدة.

ثالثا: القيام بدراسات علمية متنوعة طبيعية، بشرية واقتصادية<sup>2</sup>.

في الفترة نفسها بدأت أسواق انجلترا تتقلص بعد أن تقلص نفوذها في أمريكا الشمالية وفقدت مستعمراتها هناك، فلم تجد عوضا عن تلك الأسواق والمستعمرات إلا في الأرض الإفريقية البكر، التي لم يكتشفها الأوروبيون بعد، لذا كان الإنجليز أول من أبدى اهتماما بإفريقية والصحراء.

استهوت التجارة الواسعة والمزدهرة بالصحراء الإفريقية الدول الأوروبية، فعزمت على غزو الصحراء واستعمارها، لذا اهتم الأوروبيون بدراسة ما كتبه الجغرافيون وما تركه الرحالة العرب<sup>3</sup>، ومن خلال ذلك تعرفوا على الطرق الصحراوية المختلفة التي كانت تسلكها القوافل التجارية وقوافل الحجيج، والتي سهلت عليهم اختراق الصحراء الإفريقية من شمالها إلى جنوبها، ومن غربها إلى شرقها، بما في ذلك الصحراء الجزائرية التي تمثل الجزء الأهم من هذا الامتداد، وتتبعوا منابع الأنهار الإفريقية كالنيل والنيجر وغامبيا وغيرها، وذلك عندما عزموا التوغل في الصحراء أواخر القرن 18م وخلال القرن 19م.

درس الأوروبيون الطرق الصحراوية التي ذكرت في كتب الرحالة العرب وتعرفوا عليها، كما حاول البعض منهم معاينة الطرق التي كانت تربط الأقطار المغاربية الثلاث بعضها ببعض، والتي تربطها أيضا بالمناطق المجاورة في السودان أو المشرق العربي<sup>4</sup>. ودرسوا الطرق

<sup>1</sup> - المرجع نفسه.

<sup>2</sup> - بوعزيز يحي: (اهتمامات الفرنسيين بجنوب الجزائر والصحراء من خلال ما كتبه ومدى استفادتهم من طرق القوافل في غزوها)، المرجع السابق، ص 48. أنظر أيضا: محمد علي القوزي: (في تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر)، دار النهضة العربية، بيروت، 2006، ص ص 11 - 14.

<sup>3</sup> - Davezac. M : (de l'Algérie, et des Principaux Ouvrages Récemment Publiés à ce Sujet), N.A.V.G.H, 4 série. T7, 1841, PP. 257 – 317.

<sup>4</sup> - العربي الزبيدي: (مدخل إلى تاريخ المغرب العربي الحديث)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1984، ص ص 123-124. أنظر أيضا: سعد زغول عبد الحميد: (تاريخ المغرب العربي)، ج 4، منشأة المعارف بالإسكندرية، مصر، 1995، ص 115.

الصحراوية التي تربط بين دول المغرب العربي وبلاد السودان ودواخل إفريقيا، ومنها تلك التي ورد ذكرها في الكتابات الأوروبية وعابنها مستكشفوهم وعلى رأسهم المستكشف البريطاني جيمس "ريشارد صون"<sup>1</sup>. كما اهتم الأوروبيون على الخصوص بتجارة المغرب العربي مع بلاد السودان، أي أقطار مالي والنيجر وشمال نيجيريا من خلال معرفة أهم الأسواق والمراكز التي تتجه إليها تلك الطرق الصحراوية وتحمل إليها القوافل منتوجات الشمال الإفريقي ومستورداته الأوروبية، والتي يمكن جمعها في ثلاث مناطق هامة ورئيسية هي:

- 1- سوق تمبوكتو الذي كانت له أهمية خاصة في السودان الغربي.
  - 2- أسواق تشاد في السودان الأوسط والتي من ضمنها: بورنو، باقيرمي، سوكتو ووداي.
  - 3- أسواق السودان الشرقي ومن ضمنها: دارفور وكوردوفان.<sup>2</sup>
- وإذا كانت القوافل تحمل إلى هذه المراكز الحبوب بمختلف أنواعها: الزيوت، التمور، الأقمشة الصوفية، المرجان، الأسلحة، البارود، الأغنام، ماء الزهر، العطور، الخردوات، البزاة، التوابل، الشواشي، الشيشان والمصنوعات الأوروبية المستوردة وما إلى ذلك من أشياء يجدها التجار في أسواق المغرب الغربي، فإنها تعود في كل مرة محملة بالنبر، العبيد، العاج، الكورو، جث وريش النعام، جلود بقر الوحش والفول ... الخ<sup>3</sup>.
- 2.2 - بداية الاهتمام الأوروبي بالصحراء الإفريقية والجزائرية أواخر القرن 18م:
- تشكلت في عام 1788م بلندن "الجمعية الإفريقية" The African Association للقيام برحلات إلى أعماق الصحراء، وذلك لأسباب اقتصادية، بعد أن فقدت بريطانيا مستعمراتها الأمريكية، فراحت تبحث عن مناطق جديدة في العالم لتستعمرها<sup>4</sup>.
- ارتبطت الجمعية الإفريقية في نفس السنة التي شكلت فيها، بسائح اسمه "جون ليدارد" Jon<sup>5</sup> Ledyard يقوم برحلة لحسابها من أجل عبور الصحراء الإفريقية عبر وادي النيل إلى أعالي النيجر في اتجاه من الشرق إلى الغرب، ولكن هذا السائح واجه مغامرة المرض قبل مغامرة الصحراء، فقد مات قبل أن يبدأ رحلته في مصر، ضحية للحمي، وذلك بعد أن أتم استعداده للسفر قصد استكشاف الصحراء. وبالفشل نفسه انتهت محاولة قام بها

<sup>1</sup> -M. James Richardson: (Routes du Sahara. Itinéraires dans l'Intérieur du Grand Déserts d'Afrique), Imprimerie de le Martinet, Paris, 1850, PP. 4-28.

<sup>2</sup> -Edouard Blanc: (Les Routes De L'Afrique Septentrionale Au Soudan), Société Géographique, Paris, 1890.

<sup>3</sup> - محمد العربي الزبيري: (التجارة الخارجية للشرق الجزائري في الفترة ما بين 1792 و1830)، الطبعة الثانية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص ص 167-169.

<sup>4</sup> - نجيب زبيب: (متى عرف الأوروبيون إفريقيا)، الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس، ج.4، دار الأمير للثقافة والعلوم، بيروت، 1995، ص ص 69 - 71.

<sup>5</sup> - جون ليدارد: بريطاني الجنسية كان قسلا في طنجة.

المستكشف البريطاني في بلاد المغرب لحساب "الجمعية الإفريقية"، وهو "لوكاس" Lucas<sup>1</sup> والذي قام بمحاولة استكشاف انطلاقا من مدينة طرابلس الغرب، ولكن مقاومة السكان أرغمته على التراجع والعدول عن رحلته.

كما قام "المجور هيوتون" Le Major Houghton<sup>2</sup> برحلته سنة 1790م من مصب نهر غامبيا وتوغل نحو الداخل، وكان يبعث ببعض الرسائل من حين إلى آخر إلى تاجر بريطاني يقيم على الساحل يدعى "لبدي" Libdly حيث تلقى منه هذا الأخير أكثر من خطاب وفجأة انقطعت أخبار "هيوتون" ولم يعد يسمع عنه شيئا.

اتجهت الأظفار بعد ذلك إلى نهر غامبيا للشروع في إرسال البعثات من هذه الناحية، لأن البريطانيين قد أسسوا بها بعض المراكز التجارية منذ 1730م، حيث أقيمت لهم سلطة بريطانية متمثلة في حاكم بريطاني بمساعدة مجموعة من الجنود الوطنيين الذين يتلقون أجورهم من "شركة إفريقية الغربية الملكية البريطانية"<sup>3</sup>، لذلك وقع اختيار الجمعية على "مونغو بارك" Mungo Park<sup>4</sup>، وهو رحالة اسكتلندي لم تكن سنه تزيد عن 25 عاما عندما قام برحلته الاستكشافية داخل إفريقية ما بين أعوام 1795م و1797م. كانت المهمة التي كلف بها في تلك الرحلة هي التعرف على مجرى نهر النيجر وتتبعه إلى مصبه، وقد نال برحلته وكتابه شهرة فائقة، فاتصلت به الحكومة البريطانية من أجل تدعيم مشروعه وتقديم المساعدة اللازمة لرحلته الثانية.

كان المتطوع التالي الذي ارتبط مع "الجمعية الإفريقية" للقيام بعمليات استكشاف الصحراء واحدا من أكبر الرحالة المستكشفين والمغامرين بحياتهم، ويدعى "هورنمان" Horneman<sup>5</sup> الذي قام برحلة إلى النيجر انطلاقا من مصر ما بين سنتي 1797م و1800م، على أن النجاح الحقيقي الذي سجله الرحالة "هورنمان" في استكشاف الصحراء قدر له أن يبقى مدة طويلة في العدم، حيث غطت عليه أخبار حروب "نابليون" الأولى. كانت المهمة الأساسية التي أناطها "الجمعية الإفريقية" بالسائح الألماني هي مواصلة استكشافات "مونغو بارك"<sup>1</sup>، ولما

<sup>1</sup> - لوكاس (لوكا): كان نابيا للفصل البريطاني في طنجة.

<sup>2</sup> - هيوتون: بريطاني الجنسية كان قسلا في مراکش.

<sup>3</sup> - إبراهيم مياسي: المرجع السابق، ص 41.

<sup>4</sup> - نوي: سنة 1806م. أنظر Noyé - مونغو بارك: رحالة وطبيب إسكتلندي، ولد في 1771م، قام بعدة رحلات إلى إفريقية يعتقد أنه قتل في نوي - Paul Vuillot: (L'exploration du Sahara, Etude Historique et Géographique), Librairie Coloniale, Paris, 1895, PP.

2-3.

<sup>5</sup> - هورنمان: رحالة ألماني. لم يتجاوز عمره سن 25 حينما قام برحلته لاستكشاف الصحراء الإفريقية باتجاه النيجر انطلاقا من مصر، وذلك ما بين أعوام 1797 و1800، لكنه لقي حتفه في تمبوكتو وعمره لا يتجاوز 28 سنة. أنظر نفس المرجع، ص 290 - 292.

<sup>1</sup> - إسماعيل العربي: (تاريخ الرحلة والاستكشاف في البر والبحر)، المرجع السابق، ص 291.

وصل إلى النهر الإفريقي العظيم وأكمل استكشافات "مونغو بارك" توفي المستكشف الألماني الكبير في أحواز تمبوكتو<sup>1</sup>. وقد سجل التاريخ أنه أول أوروبي اجتاز الصحراء<sup>2</sup>. خاتمة:

ختما يمكن القول إن الصحراء الإفريقية استعصت على الأمم السابقة رغم محاولات التعرف عليها واستكشافها إلى أن تمكن الرحالة العرب من اختراقها في كثير من الاتجاهات، وجابوا معظمها، وكان لمؤلفاتهم وكتبهم التي جمعت ملاحظاتهم عن الصحراء ووصف ربوعها عظيم النفع بالنسبة للرحالة والمستكشفين الأوروبيين.

كانت الرحلات الاستكشافية العلمية الأوربية في أواخر القرن الثامن عشر بمثابة محاولات لاستكشاف الصحراء الإفريقية، وكان المغزى من تلك الرحلات هو معاينة تجارة الصحراء عن قرب وتتبع مسالكها والوصول إلى مراكزها.

جاب الرحالة الانجليز والألمان مناطق عديدة من الصحراء، بما فيها الصحراء الجزائرية، ولقد حظي البريطانيون بالسيق في التعرف على الصحراء الكبرى، ويعود الفضل في ذلك إلى "الجمعية الإفريقية" التي أسسوها سنة 1788م، ثم نافسهم في ذلك مستكشفون ألمان.

غير أن ما يلفت الانتباه في تلك الفترة بالذات هو قلة اهتمام الفرنسيين بالصحراء الإفريقية، ولكن مع مطلع القرن التاسع عشر تغير الحال تماما، حيث شهد هذا القرن تنافسا حاد بين البريطانيين والألمان والفرنسيين على حد سواء، لذلك يمكن الجزم بان تلك الاستكشافات مثلت بداية لبسط النفوذ الأوروبي على الصحراء الإفريقية واحتلالها.

قائمة المصادر والمراجع:

المصادر:

<sup>1</sup> ابن بطوطة: (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار)، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1980، ص 690.

<sup>2</sup> ابن خلدون: (كتاب المقدمة) مج 1، الطبعة الأولى، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص ص 92 - 95.

<sup>3</sup> الإدريسي: (القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس) مقتبس من كتاب. (زهة المشتاق)، تحقيق وتقديم وتعليق إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1983.

<sup>4</sup> العياشي: (رحلة العياشي)، مولاي بلحميسي: "الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني"، الطبعة 2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981.

<sup>5</sup> -Davezac. M : (de l'Algérie, et des Principaux Ouvrages Récemment Publiés à ce Sujet), N.A.V.G.H, 4 série. T7, 1841.

<sup>6</sup> -Edouard Blanc: (Les Routes De L'Afrique Septentrionale Au Soudan), Société Géographique, Paris, 1890.

<sup>1</sup> يحي بوعزيز: (اهتمامات الفرنسيين بجنوب الجزائر والصحراء من خلال ما كتبه ومدى استفادتهم من طرق القوافل في غزوها)، المرجع السابق، ص 47.

<sup>2</sup> -إسماعيل العربي: (تاريخ الرحلة والاستكشاف في البر والبحر)، المرجع السابق، ص 292.

<sup>7</sup> -M. James Richardson: (Routes du Sahara. Itinéraires dans l'Intérieur du Grand Déserts d'Afrique), Imprimerie de le Martinet, Paris, 1850.

<sup>8</sup> -Paul Vuillot: (L'exploration du Sahara, Etude Historique et Géographique), Librairie Coloniale, Paris, 1895.

المراجع:

<sup>1</sup> -إبراهيم مياسي. (توسع الاستعمار الفرنسي في الجزائر الغربي الجزائري 1882 - 1912)، منشورات المتحف الوطني، الجزائر، 1996.

<sup>2</sup> -أحمد صفر: (مدينة المغرب العربي في التاريخ ج 1)، دار النشر بوسلامة، تونس، 1959.

<sup>3</sup> -إسماعيل العربي: (الصحراء الكبرى وشواطئها)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983.

<sup>4</sup> -إسماعيل العربي: (المدن المغربية)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984.

<sup>5</sup> -العربي الزبيري: (مدخل إلى تاريخ المغرب العربي الحديث)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1984.

<sup>6</sup> -العربي الزبيري: (التجارة الخارجية للشرق الجزائري في الفترة ما بين 1792 و1830)، الطبعة الثانية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص ص 167-169.

<sup>7</sup> -أبو القاسم سعد الله: (تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى الرابع عشر هجري) ج 2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر،

<sup>8</sup> : (أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر)، القسم الأول، الطبعة الثانية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981.

<sup>9</sup> -سعد زغلول عبد الحميد: (تاريخ المغرب العربي)، ج 4، منشأة المعارف بالإسكندرية، مصر، 1995.

<sup>10</sup> -محمد علي القوزي: (في تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر)، دار النهضة العربية، بيروت، 2006.

<sup>11</sup> -محمد الصغير غانم: (التوسع الفينيقي في غربي البحر الأبيض المتوسط)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1992.

<sup>12</sup> -المنجد في اللغة والأعلام)، ط 16، دار المشرق، بيروت، لبنان، 1991.

<sup>13</sup> -نجيب زبيب: (متى عرف الأوروبيون إفريقيا)، الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس، ج 4، دار الأمير للثقافة والعلوم، بيروت، 1995.

<sup>14</sup> -يحيى بوعزيز: (اهتمامات الفرنسيين بجنوب الجزائر والصحراء من خلال ما كسبه ومدى استفادتهم من طرق التوافل في غزوها)، مجلة الأصالة، "ملتقى الإسلامي الثالث عشر"، تميزت، الجزائر، 1979.

<sup>15</sup> - (تاريخ إفريقيا الغربية الإسلامية من مطلع القرن السادس عشر إلى مطلع القرن العشرين)، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2001.